حديث فى التصوف

للاستاذ : حسن كامل الملطاوى

وكيل وزارة الخزانة

(٢)

مذاقات الصوفية من مذاقات الصحابة :

وإذا قيل بان الصحابة وهم أفضل جيل لم يتكلموا بشىء من ذلك فإننا لا نستطيع أن ندعى أنهم لم يتذوقوا هذه المقامات من مذاقات الإيمان الحق واليقين الصادق بل ان اخبارهم تؤيد ما قال به الصوفية تأييدا تاماً وستأتى الأدلة ناصعة من الكتب والسنة ، وإذا كان الصوفية قد افشوا من مشاعرهم مالم يفشه الصحابة فذلك لأنهم وجدوا الزمن قد تغير والنفوس قد صدأت والقلوب قد غفلت فاضطروا لأن يصونوا روح الدين فدونوا عليهم الذوق حتى لا يموت أهله وقصدوا بعملهم هذا أن يستنهضوا الهمم فى طلب الله وأن ينيروا سبيل السلوك الحق لمن أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا .

وقد كشف القرآن الكريم فى بعض المواضع عن كوامن الأحاسيس الباطنة فى مثل قوله تعالى :

« وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا إلا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم » .

وما كنا ولا كان زملاؤهم الصحابة يعلمون أن توبتهم وانابتهم إلى الله بلغت هذا الحد لولا أن كشف عنه الله .

وأخرج الشيخان عن أبى بن كعب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أن موسى قال للخضر (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معى صبرا) يا موسى انى على علم من الله علمنيه لا ينبغى لك أن تعلمه

وأنت على علم علمك الله لا ينبغى لى أن أعلمه .

وأخرج البزار والبيهقى فى الشعب عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقى رجلا يقال له حارثة فقال كيف أصبحت ياحارثة قال أصبحت مؤمنا حقا فقال ان لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك ، فقال عزفت نفسى عن الدنيا وأسهرت ليلى وأظمأت نهارى فكأنى أنظر إلى عرش ربى وكأنى أنظر أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أسمع عواء أهل النار فقال عرفت فالزم .

وأخرج الشيخان عن أبى هريرة فى حديث سؤال جبريل عن الإحسان ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » .

وقد قال همام ـــ وكان رجلا عابدا ـــ لمولانا الامام على كرم الله وجهه :

يا أمير المؤمنين : صف لى المتقين حتى كأنى أنظر إليهم فتثاقل الامام عن إجابته ولكنه ألح عليه فقال فيما قال :

« نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء ولولا الأجل الذى كتب لهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب وخوفا من العقاب، عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم ، فهم والجنة كمن رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم معذبون قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وأجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة وأنفسهم عفيفة . صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها .

« فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين وحزما فى لين وإيمانا فى يقين وحرصا فى علم وعلما فى حلم وقصدا فى غنى وخشوعا فى عبادة وتجملا فى فاقه وصبرا فى شدة وطلبا فى حلال ونشاطا فى هدى وتحرجا عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسى وهمة الشكر ، ويصبح وهمه الذكر ، يبيت حذرا ويصبح فرحا، حذرا من الغفلة وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة ، ان استعصت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤالها فيما تحب ، قرة عينيه فيما لا يزول وزهادته فيما لا يبقى . إلى آخر هذا الوصف الرائع الذى يصعب على غير الامام أن يأتى

بمثله رضى الله عنه وكرم الله وجهه وقد كشف به عن أحوال الصحابة وهم أئمة المتقين وتؤيد هذه الأحوال مسلك الصوفية الذين حذروا حذو الصحابه فى مسيرهم إلى الله .

وتلك الأدلة قاطعة بأن مسلك الصوفية هو احياء انهج السابقين الأولين .

مم اشتق اسم الصوفية :

جاء فى الرسالة القشيرية ما خلاصته : يقال رجل صوفى وللجماعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف والجماعة متصوفة وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق وإلا ظهر فيه أنه كاللقب .

أما قول من قال أنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف كأن يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف ، ومن قال أنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالنسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوفى ومن قال أنه من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة ومن قال أنه مشتق من الصف فكنهم فى الصف الأول بقلوبهم . من حيث المحاضرة من الله تعالى فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف .

وقال الامام القشيرى أيضا وتكلم الناس فى التصوف ما معناه وفى الصوفى من هو . فكل عبر بما وقع له .

وقد تخيرت لكم بعض ما قيل فى هذا الباب :

قال الجنيد — التصوف هو ذكرا مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع .

وقال الكتانى — التصوف هو خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء .

وقال أبو محمد الجريرى — التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى .

وقال محمد بن على القصاب — التصوف هو أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام .

وقال رويم — التصوف هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد .

وقال أبو على الروذبارى — التصوف هو صفوة القرب بعد كدورة البعد .

وقال الشبلى — الصوفى منقطع عن الخلق متصل بالحق كقوله تعالى واصطنعتك لنفسى قطعه عن كل غير ثم قال ان ترانى .

وقال ذو النون المصرى — الصوفية قوم آثروا الله على كل شىء فآثرهم الله عز وجل على كل شىء .

وقال سمنون — التصوف هو أن تملك شيئا وألا يملكك شىء .

ولسيدى أبو العباس المرسى لفتة لطيفة وتخريج ظريف إذ قال رضى الله عنه صوفى كلمة مركبة من أربعة أحرف : ص ، و ، ف ، ى .

فالصاد : صبره وصدقه وصفاؤه .

والواو : وجده ووده ووفاؤه .

والفاء : فقده وفقره وفناؤه .

والياء : ياء النسبة فإذا تكمل فيه ذلك فقد أضيف إلى حضرة مولاه .

وقال بعضهم :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا قدما وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفى حتى سمى الصوفى

قواعد التصوف

يقوم التصوف على قواعد خمس هى :

أولا : محاسبة النفس :

النفس بطبعها أمارة بالسوء والصوفية لا يحارون النفس فى حديث الشهوات ولا فى خوطر السوء بل يحاسبونها ويدفعونها بهذه المحاسبة إلى السمو والترقى ويحولون بينها وبين الإنحطاط إلى الرذيلة ، وعندهم أن الغفلة عن الله ذنب يجب الاستغفار منه ولذلك يقولون ان توبة العوام من الزلات وتوبة الخواص من الغفلات . وهم يستعينون فى تربية نفوسهم بالذكر والطاعات ومراقبة الخواطر ولهم فى ذلك المضمار مجاهدات تنتهى بهم إلى صفاء المعرفة والركون إلى الله والأنس به فى جميع الأوقات والأحوال .

وكفى النفس اللوامة شرفا أن يقسم بها الله تعالى فى قوله الكريم « لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة .

وفى هذا المقام أسوق حادثة طريفة وقعت أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حيث عين اماما على جماعة . وكان رضى الله عنه معروفا بحسن فراسته فى الرجال فشكت إليه الجماعة من أن امامهم يصلى ثم يغنى ، فاستغرب أمير المؤمنين الأمر وسأل الامام أحقا ما يقولون من أنك تصلى ثم تغنى ، قال نعم يا أمير المؤمنين ، قال ماذا تغنى ، فأجاب إنى أغنى فأقول :

وفؤادى كلما عاتبته عاد للذات يبغى تعبى
لا أراه الدهر إلا لاهيا فى تماديه فقد برح بى
يا قرين السوء ما هذا الصبا فنى العمر كذا فى اللعب
وشباب بان منى فمضى قبل أن أقضى منه أربى
نفسى لا كنت ولا كان الهوى اتقى المولى وخافى وارهبى

فما كان من أمير المؤمنين رضى الله عنه إلا أن قال لهم : من كان منكم مغنيا فليغن هكذا .

وها هو أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يحدث عروة بن الزبير عنه فيقول رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلى عاتقه قربة ماء، فقلت يا أمير المؤمنين لا ينبغى لك هذا فقال لما أتتنى الوفود سامعين مطيعين دخلت فى نفسى نخوة فأحببت أن أكسرها ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها فى اناثها .

من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها فى جميع الأحوال ولم يجبرها على مكروهها فى سائر أيامه كان مغرورا ومن نظر إليها باستحسان شىء منها فقد أهلكها. فكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه ويوسف الصديق يقول وما أبرىء نفسى أن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى .

ومن حكم الصوفية : من استولت عليه النفس صار أسيرا فى حكم الشهوات محصورا فى سجن الهوى وحرم الله على قلبه الفوائد فلا يستلذ بكلام الحق تعالى ولا يستحليه وان كثر ترداده لقوله تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق .

وقال ذو النون المصرى : إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء: ضعف النية بعمل الآخرة والثانى صارت أبدانهم رهينة لشهواتهم والثالث غلبهم طول الأمل مع قرب الأجل والرابع آثروا رضا المخلوقين على رضا الخالق والخامس تبعوا اهواءهم ونبذوا سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم والسادس جعلوا قليل زلات السلف حجة لأنفسهم ودفنوا كثيرا مناقبهم .

وقال ابن عطاء :

النفس مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب ـ فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة ، فمن أطلق عنانها فهو شريك معها فى فسادها . وقال عمرو بن عثمان المكى : العلم قائد والخوف سائق والنفس حرون بين ذلك جموع خداعة رواغة فاحذرها وراعها بسياسة العلم وسقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد .

وأقوالهم فى هذا الباب كثيرة فليراجعها من شاء فى مراجعها .

ثانيا : قصد وجه الله تعالى :

هذه القاعدة قاعدة أساسية فى الدين ، وقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه حديث (إنما الأعمال بالنيات) يدخل فى نصف العلم .

ويقول الله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقد جاء فى الحديث الشريف عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: اخلاص العمل لله تعالى ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين » . ويقول الصوفية : النية عبوديه القلب والأعمال عبودية الجوارح .

وقد قال سيدنا معاذ بن جبل لحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم حين أرسله إلى اليمن : يا رسول الله عظنى فقال له : أخلص دينك يكفك العمل القليل. ومن حكم أبى عثمان الصوفى : الإخلاص مالا يكون للنفس فيه حظ بحال وهذا اخلاص العوام وأما إخلاص الخواص فهو ما يجرى عليهم لا بهم فتبدوا منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد فذلك إخلاص الخواص.

وقال استاذى العارف بالله الشيخ على عقل وقد كان رضى الله عنه يلقن الحكمة

إلهاما من عطاء الله تعالى وكنا ندون بعض مايجرى على لسانه من ورده الأصفى :

أسعى لخالقى وأقصد وجهه ... وعن المسير إليه لن أتخلفا
يا مالكا روحى ومانحها الهدى ... أنظر إلى فأنت أكرم من عفا
إن قيل من فلت امرؤ فى ربه ... ساع وهذا فى انتسابى قد كفى
لا والذى غمر العباد بفضله ... إنى بغير الله لن اتشرفا

ثالثا : الزهد فى الدنيا :

ويقصدون به الزهد فى الحرام أما الحلال فمباح وان كثر عليهم المال الحلال شكروا الله بانفاقه فى الأوجه التى يرتضيها ويقولون ان مال الصحابة كان فى أكفهم لا فى قلوبهم فبذلوه رخيصا فى مرضاة الله ويقولون كذلك ان الصبر أحسن بصاحب الفقر والشكر أليق بصاحب المال الحلال.

وقد قال الامام أحمد بن حنبل فى هذا المقام . الزهد على ثلاثة أوجه :

الأول : ترك الحرام وهو زهد العوام .

والثانى : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص .

والثالث: ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين .

وأخيرا يعرف الصوفية الزهد فيقولون هو ألا تفرح بموجود من الدنيا ولا تتأسف على مفقود فيها عملا بقوله تعالى :

« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » .

ولا يظن ظان ان الدين الإسلامى يقف فى سبيل كسب المال لأنه زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة فها هو كتاب الله يقول «فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه» كما يقول « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله» ويقول « فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » . وكل ما يطلبه الدين الحنيف هو أن يكسب المؤمنون مالهم من حلال ولا يفتتنوا بالدنيا مهما أقبلت عليهم ولا ينسوا فى غمراتها حياة الآخرة التى هى خير وأبقى .

وقد كان امامنا الصديق رضى الله عنه يقول : والله لأن تقدم عنقى فتضرب فى غير حد أحب إلى من أن أخوض غمرات الدنيا .

وقد كانت للصحـــابة تجارة وزراعة وكانت لهم أموال ولكنها وصلت إلى أيديهم ولم تركن إليها قلوبهم كما سبق القـــول لذلك تصرفوا فيها تصرف المستخلفين فى الأرض ولم يفتتنوا بها وأنفقوا فى سبيل الله ما فضل عن حاجاتهم منها لا بل كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

والواقع أن زهـــد الصحابة صار مضرب المثل لأنهم فتحت عليهم الدنيا فلم يغتروا بزخرفها وآثاروا رضاء الله تعالى على ارضاء حظوظهم وبذلوا الأموال طيبة بها نفوسهم . ولا زلنا نذكر مواقف لهم خالدة مثل موقف الصديق رضى الله عنه حين قدم كل ما يملك لله فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أبقيت لك ولعيالك فقال ، وما أبدع ما قال ، أبقيت لهم الله ورسوله . أو موقف أمير المؤمنين عثمان بن عفان الذى جهز جيش العسرة (وعدته عشرة آلاف مقاتل) بسبعمائة بعير محملة بالزاد وأعطى كل مقاتل دينارا من ذهب ولم يكتف بهذا بل جاء بألف دينار وصبها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم فأخذ صلى الله عليه وسلم يقلبها بين يديه ويقول ما ضر عثمان ما عمل بعدها .

فالصوفية حين يدعون إلى الزهد لايدعون إلى الزهد من عدم ولكن يدعون إلى الزهد من وجود ، وهذا هو حقيقة الزهد ، أما الزهد من العدم فهو كالعدم إذ من الجائز أن يفتتن الزاهد المعدم لو طالت يداه المال (كلا ان الإنسان ليطغى ان رآه استغنى) والابتلاء بالمال ابتـــلاء كبير (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) ويا سعادة من اجتازه بنجاح وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا .

رابعا : توطيد القلب على الرحمة والمحبة للمؤمنين :

وصف الله المؤمنين بأنهم رحماء بينهم كما ربط بينهم برابطة الأخوة فى قوله تعالى « إنما المؤمنون اخوة » . وهذه الأخوة تقتضى المحبة والتراحم . وقد مثل حبيبنا المصطفى جماعة المسلمين بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . وجاء فى الحـــديث الشريف « من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم » .

وقد وصف الله حبيبنا المصطفى فقال :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

وكان أمامنا ابن حنبل رضى الله عنه يقول « لو كان لى دعوة مستجابة لدعوت للوالى بصلاح الحال لأن فى صلاحه صلاح الرعية » وقد حثت السنة المحمدية المطهرة على تعميم الدعاء للمسلمين — لترويض نفوسهم على التراحم والتماسك. وجاء فى مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان إذا نزل بالمؤمنين بلاء لا يضحك قط حتى يرتفع ذلك البلاء.

خامساً : التحلى بمكارم الأخلاق :

وهذه القاعدة هى جماع الفضائل كلها ، وقد امتدح الله حبيبنا المصطفى بقوله تعالى « وانك لعلى خلق عظيم » وقال صلوات الله وسلامه عليه إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وقال أدبنى ربى فأحسن تأديبى.

ولن يكون المؤمن متحليا بمكارم الأخلاق حتى يتخلق بالخلق النبوى الكريم. وقد سئلت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه. وما أحلى ما قاله حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم : أنتم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق. وقد قال العارفون أن مكارم الأخلاق منحصرة فى قوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ». كما قالوا ان الاستقامة تنهى عن الشر والصلاح يأمر بالخير. وذهبوا إلى أن التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى التصوف.

وروى أن أمير المؤمنين أمامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه — دعا غلاما له فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه ، فقام إليه فرآه مضطجعا فقال « أما تسمع يا غلام » فقال نعم « قال فما حملك على ترك جوابى » فقال أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال « امض فأنت حر لوجه الله تعالى ». وبهذا الخلق الكريم قابل الإمام كرم الله وجهه السيئة بالحسنة (ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار).

« البحث مستمر »